

الفصل السابع

انتشار الإسلام في الصحراء الكبرى

والسودان الغربي والأوسط

كانت الصحراء الكبرى في عصر الجليد تقع في منطقة الرياح العكسية ، وكان يصيبها من المطر ما يكفي لإنشاء أنهار دائمة الجريان . فلما تفتقر الجليد إلى الشمال تفتقرت تبعاً له الرياح العكسية وحل محلها في الصحراء الكبرى الرياح التجارية الشمالية الشرقية وهي هنا رياح جافة . ومن ثم عم الجفاف الصحراء حتى لقد تمضي الأعوام على بعض أجزاءها دون أن يحظى بقطرة من المطر . فلا عجب أن تبقى الصحراء الكبرى مرهوبة الجانب دهرًا طويلاً يتخيلها الإنسان مساكن للجن والشياطين ، ولا يخاطر عاقل بالتوغل فيها حتى بعد أن دخلت الخليل مصر ثم بلاد المغرب في عصر الهكسوس (١٧٨٥ — ١٥٨٠ ق . م) . ولا ريب في أن أول ما ينفّر الناس من الصحراء خوفهم من الموت عطشاً .

ومن الطريف في هذا الباب ما يقصه الطبري عن سليمان عليه السلام حيث يقول : « كان سليمان بن داود إذا أراد سفراً قعد على سريره ووضعت الكراسي يميناً وشمالاً . فيأذن للانس ، ثم يأذن للجن ، فيكونون خلف الإنس ، ثم يأذن للشياطين فيكونون خلف الجن ، ثم يرسل إلى الطير

فتظلمهم من فوقهم — ثم يرسل إلى الريح فتحملهم فتسير بهم ، غدوها شهر ورواحها شهر رخاء حيث أصاب . فبينما يسير إذ نزل مفازة فسأل عن بعد الماء ههنا فقال الإنس لا ندرى ، فسأل الجن فقالوا لا ندرى ، فسأل الشياطين فقالوا لا ندرى . فغضب سليمان فقال : لا أبرح حتى أعلم كم بعد مسافة الماء ههنا .

فإذا كان هذا النبي الملك المتحكم في الإنس والجن والشياطين والطير والرياح لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في الصحراء حتى يعلم قبل أن يتحرك للسير المسافة التي عليه أن يقطعها قبل أن يبلغ مورد ماء جديد فكيف بسائر الناس؟ وقصة سليمان هذه تمثل الحقيقة الواقعة وهي ضرورة وجود الماء الصالح لشرب الإنسان والحيوان . ولما كانت موارد الماء في الصحراء قليلة ومتباعدة لم يكن في الطاقة المخاطرة باجتيازها مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل . فلما نقل الرومان الإبل من مراعي غرب آسيا إلى بلاد المغرب في أوائل العصر المسيحي أصبح في حدود المعقول استخدام سفينة الصحراء لارتداد أطرافها عساها تبلغ ماء قبل أن يهلكها الظم .

وخاطر أناس باقتحام الصحراء كما خاطر كولمبو باقتحام المحيط ، وكانت النتيجة في الحالين خيراً وبركة على بني الإنسان : ذلك بأن الذين اقتحموا الصحراء لأول مرة صادفوا ماء أخذوا منه قدر ما يطيقون ، وبلغهم هذا الماء ماء ثانياً ، وبلغهم الماء الثاني ماء ثالثاً . وهكذا حتى تم لهم اجتياز الصحراء بعد تجارب شاقة — لعلها امتدت بهم مئات السنين .

وبالكشف عن موارد الماء في الصحراء شمخت الإبل بأنوفها حين

أحست حاجة الناس إليها باعتبار كونها — دون سواها — القادرة على اطلاعهم على أسرار الصحراء وما تكنه من واحات خصيبة ومرتفعات تجودها أمطار في بعض فصول العام فتنبت من كل زوج بهيج . هذا إلى ما هنالك من مناجم للملح كان الناس في أمس الحاجة إليها ؛ ثم إماطة اللثام عما وراء الصحراء الكبرى من بلاد السودان الأوسط والغربي حيث المراعى النضرة والأرض الصالحة للزراعة والهجرة .

ولم يباليغ المؤرخ الفرنسى إذ عد الكشف عن أول واحة في الصحراء الكبرى انقلاباً لا يقل عما أحدثه ابتكار السكك الحديدية والسيارات والطائرات .

وإليك — على سبيل المثال — بعض طرق القوافل التي تحترق الصحراء وتربط مصر وبقية شمال أفريقية بالسودان .

١ — من أسيوط إلى الفاشر عاصمة دارفور .
٢ — من بنى غازى — ثغر برقة — عن طريق أوجلة وواحة كفرة إلى أبشر عاصمة وادى ومن ثم إلى الفاشر .

٣ — من مدينة طرابلس الغرب عن طريق مرزوق — عاصمة فزان — إلى كوكا العاصمة التجارية لإقليم برنو ، ومن ثم إلى كانو مستودع السودان الأوسط ومقر صناعته وتجارته .

٤ — من طرابلس الغرب عن طريق غدامس إلى عين صالح في واح توات .

٥ — من مدينة الجزائر عن طريق عين صالح والمبروك إلى تمبكتو .

٦ — من أغادير عن طريق تندوف وتودنى وهى المركز الرئيسى للمناجم
الملح فى الصحراء إلى تمبكتو .

٧ — من تافالت عن طريق تودنى وأروان إلى تمبكتو .

وما أن فتح العرب شمال أفريقيا حتى اتخذت بعض قبائل البربر من هذه
الطرق وسيلة للهجرة إلى السودان تستوطنه وتنشر الإسلام فيه . وأول من
أسلم من أهل السودان مملكة السنغاي وذلك فى فجر القرن الخامس الهجرى
وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى إذ اعتنق ملكها وزعمائها الإسلام ،
وتقرر أن يكون اعتلاء العرش مقصوراً على المسلمين . ومن ذلك الحين صار
ملك السنغاي وزعمائها مدافعين عن الدين الخفيف حريصين على نشره .
ومن القبائل البربرية التى هاجرت إلى السودان أناس خالطوا السودانين
الزراع وصاهروهم ، ونشأ عن هذه المصاهرات جيل قوى عظم نفوذه فى السودان
واشتهر منه جماعة سمو أنفسهم «فلبى» وأطلق عليهم جيرانهم نحو مائة اسم
أكثرها ذيوغاً فلا وفلانى .

وقبائل فلبى بعيذة الصوت فى السودان الأوسط ، يقيمون جماعات متفرقة
فى حوض نهر النيجر الأعلى ، وينعمون بحياة رعوية فى سلم واطمئنان .
ويرى بعض الباحثين أنهم أذكى القبائل الأفريقية . ومما زاد فى نفوذهم ظهور
علم ورع من بينهم يسمى الشيخ «عثمان دنفديو» أعجب بالدعوة الوهابية
فجاء على السودانين تعظيم الأولياء وشرب الخمر وفساد الأخلاق . وفى سنة
١٨٠٢م حدثت ثورة فى مملكة وثنية مجاورة للفلبى كان من أغراضها وقف
ازدياد نفوذ الفلبى فى أرجائها . فجز ذلك فى نفس عثمان ونادى بالجهاد فالتف

حواله جماعة من الفرسان . ولما كانت الأرض هنالك منبسطةً جد صالح
للمناورة الخيالة ، انقض عثمان وجيشه على الوثنيين والمسلمين على السواء . فلم
تمض إلا مدة يسيرة حتى انصلح حال المسلمين وأسلم الوثنيون . وبذلك ساد
الدين الحنيف لأول مرة في وسط أفريقيا وفي غربها . وفي سنة ١٨٠٥
أنشئت مدينة سُكوتو واتخذها عثمان عاصمة روحية ومدنية .

وتم له الاستيلاء على جميع أرض الحوصة قبل وفاته سنة ١٨١٦ ومد
خلفاؤه من بعده سلطان الفلبي إلى « ادماوه » شرقاً وإورن في بلاد يوروبا
غرباً ؛ واحتفظوا بهذه السيطرة طوال القرن التاسع عشر .

ولو لم يكن للفلبي فضل إلا نشر الإسلام وتوضيح معتقداته بين الحوصة
لكفاهم ذلك فخراً : ذلك بأن الحوصة — كما يصفهم الرحالة والمبشرون —
قوم تجار هادئون ينقلون سلعهم مسافات شاسعة ، وتمتد رحلاتهم من ساحل
غانة إلى القاهرة . وبلغ من أثرهم أن صارت لغتهم اللغة التجارية لأهل
السودان الغربي قاطبة . وبانتشار لغة الحوصة اتسعت دائرة الدعوة إلى الإسلام
حتى شكا المبشرون المسيحيون من أن الإسلام يحل حيثما حل الحوصة .

وكان قيام الإدارة البريطانية سنة ١٩٠٠ في نيجريا في مصلحة الدعوة
إلى الإسلام ، إذ أصبح مسلمو الحوصة يستطيعون الاتصال بالقبائل الوثنية
التي كانت إلى ذلك الحين تحرم تسرب المبادئ الإسلامية إلى مواطنها . وإلى
جانب ذلك كان المسلمون يلزمون المدن الكبيرة المسورة ، فلما استتب الأمن
بوجود البريطانيين سكنوا القرى إلى جوار مزارعهم فاتسع أمامهم ميدان
نشر الدين

وساعد تجنيد المسلمين في نيجيريا على نشر دينهم لأن الجنود الوثنيين الجدد يعتقدون الإسلام فراراً من سخرية الناس منهم ، وحرصاً على اكتساب الاحترام الذي يتمتع به الجنود من المسلمين . وبهذه العوامل وأمثالها عم الإسلام نيجيريا الجنوبية .

وفي غضون القرن الرابع عشر الميلادي انتقل عرب التجار من القسم الجنوبي من بلاد تونس وانتشروا في برنو و« وداي » وبلغوا دارفور . وأعجب ملك دارفور الوثني برجل منهم يسمى أحمد فأتخذه مستشاراً ووفق أحمد إلى إدخال إصلاحات اجتماعية واقتصادية وإدارية حازت رضا الملك والسكان جميعاً فتعلق به الأهليون إلى حد حمل الملك على تزويجه من ابنته وتعيينه ولياً لعهد وملكاً لدارفور من بعده . فبقى عرب التجار أصحاب النفوذ في تلك البلاد إلى اليوم .

ولم يحل دون توغل هؤلاء العرب وأمثالهم إلى ما يلي تلك البلاد جنوباً إلا الغابات الاستوائية الرطبة التي لا تصح فيها أجسامهم ، والله ذو عمر بن الخطاب إذ يقول : « لا تصلح العرب إلا حيث تصلح إبلهم » .

ولما أغار بنو هلال على بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي ، هاجر أناس من البربر إلى الصحراء والسودان فوجدوا المسلمين بحاجة إلى الإرشاد . فأنبروا لهذه المهمة فلما لم يجدوا إقبالا ، اعتزل أحدهم وهو عبد الله بن يس في جزيرة في نهر السنغال واقطع للعبادة وكثر تلاميذه . فلما بلغوا ألفاً خرج بهم للجهاد سنة ١٠٤٢ م وسماهم المرابطين نسبة إلى الرباط وهو الخلوة التي اتخذها في جزيرته بنهر السنغال فكان ذلك أصل دولة المرابطين .

وكان انتصار المرابطين كافياً لإقناع قبائل الصحراء بأن الإسلام سبب انتصارهم فأقبلوا يعتنقون هذا الدين السكفيل بالنصر ، فاندفعت القبائل الوثنية إلى راية المرابطين باعتبار كونها تمثل الدين والقومية في آن واحد .

وكان هؤلاء المتحمسون يختلطون بالسكان حيثما نزلوا ويصهرون إليهم ويقنعون أصهارهم باعتماد الإسلام ، وما يزالون يوسعون ميدان عملهم حتى يكثر أتباعهم فينشئون المساجد والمدارس ، ويعنون بتعليم أبناء الزعماء ويربونهم على الغيرة على الإسلام ، حتى إذا تزعموا قبائلهم استخدموا نفوذهم في هداية هذه القبائل بأسرها إلى الدين الحق .

وكان من أثر ذلك إنشاء مدينة تمبكتو وهي على نحو ستة كيلومترات ونصف من نهر النيجر وتتصل به بقناة صالحة للملاحة أثناء الفيضان . وبهذا الموقع الموفق تدفقت عليها كل غلات المراعي والمزارع في السودان الغربي إذ كانت ملتقى الطرق كما رأيت .

ومن ثم وجد التجار المسلمون فيها محطة متوسطة يسهل التنقل منها إلى جميع أنحاء السودان الغربي ونشر الإسلام فيه بحيث صارت تمبكتو العاصمة الدينية والتجارية في تلك الأصقاع .

وزاد في انتشار الإسلام خروج المسلمين من أسبانيا : ذلك بأن الذين طردهم الأسبان انطلقوا في طرق قوافل الصحراء يطلبون أرضاً طيبة . فلما نزلوا السودان جنوا فيه ربحاً مادياً كبيراً ، وجنوا ربحاً أبقي منه هونشر الإسلام بين زنوج ذلك الاقليم وكانوا إذ ذاك يأكلون لحم البشر ويقربون لأوثانهم القربان من بني الانسان .

وحيثما حلت هذه الجماعات الأسبانية ومن رافقها من أهل المغرب تجلت حماستهم لنشر الدين بين الشعوب التي أقاموا بين ظهرانيها ، ثم بين من جاورها من الشعوب الوثنية الأخرى .

واستولى هؤلاء الأسبان والمغاربة على تمبكتو وغيرها من بلاد المندنجو . وهاجر هؤلاء فنزلوا إلى الشمال من سيراليون وشرعوا ينشئون المدارس يعلمون فيها اللغة العربية والدين الإسلامي وما يرتبط بهما من الثقافة . وعنوا بنوع خاص بتعليم جيرانهم أن المسلم لا يباع رقيقاً .

وتعترف الشركات البريطانية بأن دخول المندنجو إلى سيراليون رفع أهلها إلى درجة محمودة من الحضارة والاتحاد والأمن ، وأنه كان من نتائج مساعيهم زيادة سريعة في عدد السكان ، وأن الذين تعلموا في مدارس المندنجو يزدادون ثروة ونفوذاً في الجهات المجاورة لهم ، وينشرون قدراً عظيماً من تعاليم دينهم وقوانينهم المبنية على القرآن . وتحتّم إحدى هذه الشركات اعترافها هذا بالشكوى إلى البرلمان البريطاني بقولها : « يظهر أن دين الإسلام سوف يقشوف في كل هذه الأقاليم حتى يعم مستعمرة سيراليون ؛ وينتشر مع الإسلام تلك المزايا التي تنصره على خرافات الزنوج . وقد أمر البرلمان البريطاني بطبع هذه الشكوى سنة ١٨٠٢ .